مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 301-331

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

أعيان تطوان خلال القرنين 18-19م بعيون الرحالة الأوربيين

The Notables of Tetouan in the 18 and 19th centuries in the eyes of European travelers

عبد الرزاق العساوي [1]

[1] ثانوية الفقيه التطواني التأهيلية -المغرب-، assaoui86@gmail.com

تاريخ الاستلام: 04 ماي2018 تاريخ القبول:22 جانفي 2020

Abstract:

The notables of Tetouan emerged during the 18th and 19th centuries as major actors in the city's history. This reflects the historical material accumulated during the studied period, which includes documents developed for practical purposes such as marriage, estate ownership, property fees, and Makhzan correspondence, in addition to traditional historiography, especially the local history books. Without forgetting an essential source material no less important than the aforementioned material, it is about trip books. A good investment of travel books through careful reading and careful accountability of the texts of the travel books is enough to provide new data about notables and their social mobility. Travelers have shed light on the physical and cultural determinants of notables, so they focused on the men of

المؤلف المرسل: عبد الرزاق العساوي.

البريد الالكتروني: assaoui86@gmail.com

authority and the great merchants belonging to ancient Andalusian origins, while the books of the trip referred to the people of righteousness and attraction as a remarkable phenomenon, without introducing their men and their distinctive characteristics, such as the books of the virtues and translations. Perhaps this reflects the intellectual backgrounds of travelers from capitalist societies characterized by class inequality. However, it provides a different approach to the topic of social hierarchy in the cities of the Islamic world before colonialism.

Key words:

Social history; Social hierarchy; Notables, Tetouan; History of Morocco.

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 301-331
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الملخص:

برز أعيان تطوان خلال القرنين 18م و19م كفاعلين أساسيين في تاريخ المدينة. تعكس ذلك المادة التاريخية المتراكمة خلال الحقبة المدروسة، التي تشتمل على وثائق وضعت لأغراض عملية مثل عقود الزواج، وزمام التركات، ورسوم الملكية، والمراسلات المخزنية، إضافة إلى الإسطوغرافيا التقليدية، وفي مقدمتها كتب التاريخ المحلي. دون أن ننسى مادة مصدرية أساسية لا تقل أهميتها عن المواد المذكورة، يتعلق الأمر بكتب الرحلة. إن الاستثمار الجيد لكتب الرحلة عبر القراءة المتمعنة والمساءلة الدقيقة لمتون كتب الرحلة كفيلة بتقديم معطيات جديدة حول الأعيان، وحركيتهم الاجتماعية. فقد سلط الرحالة الضوء على المحددات المادية والثقافية للأعيان، بحيث ركزوا على رجال السلطة وكبار التجار المنتمين لأصول أندلسية عريقة، في حين أشارت كتب الرحلة إلى أهل الصلاح والجذب كظاهرة لافتة، دون التعريف برجالها والخصائص المميزة لهم على غرار كتب المناقب والتراجم. ولعل ذلك يعكس الخلفيات الفكرية للرحالة المنتمين إلى مجتمعات رأسمالية يطبعها التفاوت الطبقي. غير أنها تقدم مقاربة مغايرة لموضوع التراتب الاجتماعي بمدن العالم الإسلامي قبل الاستعمار.

الكلمات المفتاحية:

التاريخ الاجتماعي؛ التراتب الاجتماعي؛ الأعيان، تطوان؛ تاريخ المغرب.

أصبحت كتب الرحلة منمظان البحث التيتستقطب اهتمام المؤرخين. غير أن الاستثمار الجيد لهذهالكتب يتطلب إدراك خصوصيات المتن وظروف إنتاجه وعناصر تميزه عن باقي الأجناس الأخرى،وذلك تجنبا للمنزلقات المنهجية التي قد تسيء لنتائج العمل[1].

وتكمن قيمة كتب الرحلة من خلال الجوانب الآتية:

- على المستوى المنهجي: تنطلق كتب الرحلة من نظرة خارجية متحررة من القيود التي يمكن أن تخضع لها إسطوغرافيا التاريخ العام أو التاريخ المحلي. غير أن هناك قيودا جديدة تتحكم في الكتابة، تتمثل في الصورة النمطية التي يحملها الرحالة بفعل تراكم القراءات والانطباعات التي حملها قبل مجيئه إلى الفضاء المدروس، وذلك حسب خصوصية الرحالة ومميزاته[2].

- على المستوى المعرفي: تقدم كتب الرحلات معلومات دقيقة تتصل بالحياة اليومية. لا يمكن العثور عليها ضمن باقي الأجناس. تشكل إضافة جديدة للكتابة التقليدية، وتسمح للقارئ المتمعن بمقاربة صورة المجتمع والفضاء من زاوية جديدة.

وعلى غرار المدن الكبرى بالمغرب خلال القرنين 18م و19م، كان حضور تطوان لافتا للانتباه في عدد من كتب الرحلات الأجنبية، وذلك بحكم موقعها القريب من مضيق جبل طارق، ووجود قناصل الدول الأجنبية في تطوان، إضافة إلى أهمية مرسى تطوان التي أدت أدوارا تجارية رئيسة خلال القرنين 18م و19م[3].

1- تطوان في كتب الرحلة:

يمكن تصنيف البعثات التي مرت بمدينة تطوان خلال القرنين 18م و19م إلى نوعين:

- البعثات الرسمية: تنتمي إلى دول أوربية، ربط المغرب معها علاقات سياسية وتجارية. كان لهذه الدول قناصل يسهرون على مصالح تجارتهم بالمغرب.

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 301-331
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

ويندرج ضمن هذا النوع كذلك البعثات الدينية التي كان الهدف منها تحرير الأسرى[4].

- البعثات غير الرسمية: وهي رحلات قام بها أشخاص لم ترتبط رحلتهم بجهات رسمية، وإنما حفزتها عوامل ذاتية، تتمثل في اكتشاف مناطق جديدة، وسلك طرق غير معروفة، ورصد ملاحظات وأوصاف غير معهودة لدى الرحالة السابقين.

ومن أهم الرحلات التي تناولت مدينة تطوان خلال القرنين 18م و19م، نذكر:

- **رحلة جون وندوس**John Windus: زار المغرب ما بين 1720م و1721م. دون رحلته في كتاب عنونه ب: «رحلة إلى مكناس»[5] ألفه سنة 1725م وقدمه إلى جيمس نائب أميرال إنجلترا. يقدمأوصافا عن تطوان، من الصفحة 6 إلى الصفحة 67.

- **رحلة برايتوايت**Braithwaite: «تاريخ ثورات إمبراطورية المغرب منذ وفاة سلطان المولى إسماعيل»[6]، قام برحلته ما بينيوليوز1727م وفبراير 1728م. كان مرافقا للقنصل العام البريطاني جون راسل John Russell. نشر الكتاب سنة 1729م. يتضمن الكتاب وصفا لتطوان إلى حود الصفحة 162.

- **رحلة جون بوتوكي**Jean Potocki: «**رحلة إلى المغرب**»[7] قام بها سنة 1791م. دامت الرحلة شهرين. زار قبل وصوله إلى المغرب عدة مناطق: تركيا ومصر 1781م وهولندا 1787م. قضى وقتا طويلا في مدينة تطوان. يقدم وصفا لتطوان في كتابه إلى حدود الصفحة 86.

- **رحلة دونبيدرو انطونيو دي ألاركون** Don pedro Antonio de Alarcon: رافق الجيش الإسباني أثناء حملته العسكرية التي انطلقت سنة 1859م، وانتهت باحتلال تطوان 1860م، سجل مذكراته في كتاب عنونه ب:« يوميات شاهد على حرب تطوان »[8]. وهو يصنف ضمن صنف المذكرات. حقق هذا الكتاب نجاحا باهرا، فقد تصدر قائمة المبيعات عام 1860م، بلغ عدد نسخ طبعته الأولى 50 ألف نسخة، ووصل سعر النسخة إلى 50 ريالا. يقدم الكتاب شرحا دقيقا للحرب بين المغرب وإسبانيا في أواخر عام 1859، إلى غاية التوقيع على اتفاقية السلام في أبريل 1860م. كما يتضمن وصفا دقيقا للحياة في مدينة تطوان التي احتلها الإسبان آنذاك،ولوضعية الجيش المغربي،ولعادات وتقاليد المغاربة.

- **رحلة ستيفان بونزال**Stephan Bonsal: وصل بونزال إلى طنجة سنة 1891م قادما من نيويورك. كان الهدف من رحلته إنجاز موضوع صحفي مبتكرتحت عنوان «رحلة صاخبة في مجاهل إفريقيا». كان مصحوبا برفيقة، ساعدته في تسجيل معطيات خاصة بالحريم. ألف كتاب «**المغرب كما هو**»[9]. طبع هذا الكتاب طبعة ثانية بلندن سنة 1893.

وقد حاولنا، من خلال اشتغالنا على كتب الرحلة المدرجة أعلاه، الأخذ بعين الاعتبار العناصر التالية:

- اعتماد رحلات رسمية وأخرى غير رسمية،

- أن تغطي الرحلات الحقبة المدروسة أي القرنين 18م و19م،

- أن تشمل رحلات ذات جنسيات مختلفة،

-التركيز على المقدمات باعتبارها مدخلا لفهم أهداف الرحلة وخصوصياتها،

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

- إعطاء أهمية للأوصاف التي همت الجانب الاجتماعي، قصد الإمساك بالمضمون الاجتماعي لمصطلح الأعيان ضمن كتب الرحلة.

وإجمالا، يمكن إثارة الانتباه إلى بعض الملاحظات الأساسية:

- على مستوى المضمون: يلاحظ تكرار المعطيات والمعلومات ضمن كتب الرحلة طيلة القرنين 18م و19م، وذلك راجع إلى اطلاع الرحالة على الكتب المنجزة قبل القيام برحلتهم، وبالتالي وجود صور نمطية قبلية[10] وجهت أعمال الرحالة خاصة الذين قاموا برحلات رسمية، في حين يقل حضورها في كتب الرحلة غير الرسمية التي تستهدف الاستكشاف والبحث عن معطيات جديدة وغريبة في الوقت نفسه.

- على مستوى المنهج:نلاحظ اعتماد كتب الرحلة على أسلوب وصفي، الغاية منه الإخبار بالمعطيات ومعلومات حول الزيارة، مع تباين كتب الرحلة من حيث طريقة توظيف الأسلوب الوصفي،إذ نلاحظ نزوع الكتب الأنجلوساكسونيةنحو النزعة البراغماتية التي تركز على جوانب محددة، على عكس باقي الكتابات التي تستعمل صورا بلاغية ولغة أدبية[11].

2. الأعيان التطوانيون في كتب الرحلة:

1.2. رحلة جون وندوس :

تندرج رحلة جون وندوس المعنونة ب « رحلة إلى مكناس » ضمن الرحلات الرسمية[12]. كان وندوس من بين أعضاء الرحلة التي أرسلها جورج الأول ملك بريطانيا سنة 1720م إلى المغرب برئاسة المستر شارل ستيوارت لعقد معاهدة مع الدولة المغربية لفداء الأسرى الإنجليز بالمغرب.

تطرق وندوس لوصف ديار تطوان، فقد ذكر بأنها: « جميلة جدا ولكن شوارعها ضيقة جدا أيضا وقلما ترى بتلك الدور نوافذ وإنما ترى بها فتحات صغيرة، والنور ينفذ إليها بواسطة فناء بوسطها مربع الشكل مكشوف فيه أعمدة تحمل الأروقة بسقوف من الخشب مطلية تحيط بداخل الدار، وهي تكاد تشبه ديارنا، وفي وسط الفناء توجد خصة إذا كانت الدار لشخص صاحب حيثية(...) وهذه الدور تكون بها في العادة طبقتان، ما عدا دار الباشا ودور أشخاص معدودين، والطبقة العليا مسطحة بحيث في بعض الجهات يمشي الإنسان بكل سهولة، ولكن الدور التي للتجار المسيحيين توجد بسطوحها شرفات[13] » .

لم تقتصر أوصاف وندوس على الفضاء الحضري لمدينة تطوان، بل شملت سكانها الذين وصفهم بالفقراء الخاضعين لسلطة الباشا. فقد اعتبر وندوس بأن الباشا هو الحاكم المطلق في المدينة، يتحكم في الأرواح والثروات والشعب،ويسلب الناس من دورهم وأراضيهم وخيلهم[14]. كما ركز على بعض مظاهر تراتبية المجتمع التطواني من خلال بعض عاداته اليومية مثل التحية بين السكان، فهو يسجل ملاحظات دقيقة حول اختلاف طريقة التحية حسب مكانة الفرد داخل المجتمع. الأمر نفسه ينطبق على أسلوب اللباس التي تطرق إليها بشرح مفصل، بين عبره طريقة لباس الفئات الفقيرة والفئات الغنية داخل المجتمع التطواني[15].

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

والملاحظ من خلال رحلة وندوس تركيزه الكبير على وصف نمط حياة أعيانها، وفي مقدمتهم باشا تطوان، إذ تحدث بإسهاب عن شخصية الباشا أحمد بن علي الريفي،فقد أشار إلى أنه ينتمي إلى عائلة مغمورة، فوالده الذي حكم قبله كان مجرد شخص فقير، غير أنه استطاع في مدة وجيزة أن يتحول إلى حاكم لتطوان ونواحيها، بفضل إخلاصه وتفانيه في العمل لصالح السلطان.

تطرق إلى عائلة قردناش التي وجهت الدعوة إلى أعضاء البعثة لتناول وجبة الغذاء في بستانها الذي وصفه بأنه عبارة عن حديقة غناء[16]، مظللة بأشجار البرتقال، ويذكر أنه بعد الغداء أمر صاحب البستان رجاله بالقيام بألعاب رياضية، فصار بعضهم يضرب بعضا، وقد فعل ذلك لتسلية أعضاء البعثة.

ومن العناصر التي لفتت انتباه جون وندوس داخل مدينة تطوان المجاذيب الذين يحظون بتقديس واحترام من لدن سكان تطوان. فقد تحدث عن اعتقاد الناس ببركة هؤلاء المجاذيب خاصة في فترات الأزمة مثل فترة الجفاف، إذ يلجأ أهل تطوان للصلحاء طلبا لشفاعتهم وبركتهم. ويذكر جون وندوس بعض السلوكيات التي ترتبط بتقديس هؤلاء المجاذيب، مثل تقبيل الناس لثيابهم وتقديم الهدايا لهم. كما تطرق إلى وضعية المجاذيب بعد الموت، إذ تبنى لهم أضرحة تصبح قبلة للزوار من داخل وخارج المدينة[17].

2.2. برايت وايت:

يقدم برايت وايت وصفا لأعيان المدينة، وفي مقدمتهم القائد الذي قدم تفاصيل حول لباسه: «كان يلبس طربوشا من الجوخ، لف عليه قطعا من القماش الأبيض الرقيق، صفت بنظام بديع، وبرزت إحداها وهي أجملها من أعلى العمامة (...) وكان حائكه وبرنسه يعادلان في بهائهما بقية الملابس» [18].

إلى جانب قائد تطوان أحمد بن علي، قدم برايت وايت أوصافا لبعض أعيان تطوان، مثل الحاج لوقش الذي زاره المؤلف، وذكر أنه كان مشرفا على ديوانة مرسى تطوان، وقد خصه بثناء كبير يبرز مكانة الرجل داخل المدينة، الذي كان منزله، حسب برايت وايت، قبلة للسفراء الأجانب خاصة سفراء انجلترا، الذين اعتادوا زيارة منزله وحمل الهدايا إليه بعد وصولهم إلى مدينة تطوان[19].

ومن الخصوصيات التي انفرد بها كتاب برايت وايت، تقديمه وصفا لأحداث الصراع بين أعيان تطوان، وفي مقدمتهم عمر لوقش، وأهل الريف الذي التفوا حول الباشا أحمد الريفي. وقد ركز بشكل كبير على موقف الأعيان المحليين الذين شكلوا ما أسماه برايت وايت بمجلس الوصاية، ذكر الرحالة أن هذا المجلس عمل على إخفاء حقيقة خسائر المدينة، في حين بالغ في إظهار خسائر الباشا أحمد. غير أن برايت وايت أشار إلى الخسائر الجسيمة التي لحقت بأعيان تطوان بدورهم، فقد شاهد جثتا للأموات من أعيان تطوان، كان في مقدمتهم أحد أبناء عمر لوقش، كما يذكر أن ابنه الثاني أصيب كذلك في المعركة. وقد تأسف الرحالة لمصيرهما خاصة وأنه كان قد التقاهما سابقا في بستان أبيهما، وعاملاه بلطف ولباقة[20].

وقد تطرق برايت وايت، بدوره، لمكانة الأولياء في مدينة تطوان، فهو يذكر أنه في يوم 23 شتنبر1727م، قضى أعضاء البعثة جزءا من نهارهم في زيارة

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

أضرحة الأولياء، ويبلغ عددها نحو الاثني عشر ضريحا، وقد وصفها بأنها ملاجئ، لا تنتهك حرمتها، يعتصم بها أي شخص مهما كانت جريمته.

3.2.جون بوتوكي :

كان جان بوتوكي يبلغ من العمر 30 سنة حين قام برحلته للمغرب. لم يكن المغرب البلد الأول الذي زاره بوتوكي، بل سبق وزار وكتب عن رحلاته لتركيا، ومصر (1781م)، وهولندا، وبعد المغرب زار المؤلف الصين سنة 1805م، وبلاد أوربا الشرقية.

وحول دواعي رحلته للمغرب، اعتبر بوتوكي أن الرحلة تندرج ضمن الاستكشاف والبحث عن معرفة العوالم الأخرى. غير أننا لا نستبعد وجود أهداف رسمية لرحلته، منها حمل رسائل الملك البولوني ستانسلاس أوغست طوفسكي (حكم ما بين 1764م – 1795م) إلى السلطان المغربي قصد كسب تحالفه وصداقته. وما يرجح احتمالنا، رسائل التوصية التي كان يحملها بوتوكي، المسلمة له من شخصيات فاعلة في المخزن، مثل ابن عثمان مما سهل مهمته، فقد استقبله قائد المدينة وأعيانها، كما حظي بتقدير واحترام كبيرين على غرار رؤساء البعثات الرسمية[21].

يتضمن كتاب بوتوكي وصفا لمدينة تطوان. والملاحظ أن بوتوكي ركز بشكل كبير على التشابه بين ضفتي المغرب وإسبانيا من حيث الجغرافيا والإنسان. كما قدم أوصافا حسنة لسكان المدينة الذين نعتهم ب "المتحضرين " والمواطنين."[22]

تميز بوتوكي بتقديمه أوصافا للحياة اليومية في تطوان. فقد قام بزيارة للسوق البلدي، تبين له من خلالها مهارة الصانع اليدوي المغربي، والجودة العالية

للصناعة التقليدية. فيما يخص التعليم، فقد كان بوتوكي متعطشا لمعرفة المستوى الذي وصله تدريس العلوم في بلاد الإسلام. وقد أدرك من خلال ملاحظاته وحواراته التأخر الذي يعرفه المغرب على المستوى التعليمي بفعل تمحوره حول التعليم النظري، وتهميشه للعلوم التطبيقية والتجريبية، على الرغم من تداول كتب أرسطو وابن سينا بين الفئات المثقفة داخل المدينة، ووجود الفضول العلمي لدى أهل تطوان[23].

وعلى غرار رحلة وندوس خص بوتوكي أعيان المدينة بصفحات عديدة من مؤلفه، وفي مقدمتهم القائد عبد الرحمان أشعاش الذي جمعته ببوتوكي صداقة حميمة. يذكر بوتوكي أن عبد الرحمن أشعاش أحاطه بعناية خاصة، ووفر له كافة الخدمات الأساسية أثناء إقامته في مدينة تطوان. وكان طبيعيا أن يحظى القائد مقابل الخدمات المقدمة بثناء بوتوكي الذي خصه بصفات حسنة مثل "التواضع"، و"البساطة"، و"الجود"، وهي صفات لم نعهدها في كتب الرحلة خاصة غير الرسمية التي حملت صورا نمطية عن قادة المدينة ربطتهم بالاستبداد، وفرض الضرائب الثقيلة على السكان.

يبدو أن بوتوكي استفاد بشكل كبير من علاقته الجيدة بالقائد عبد الرحمن أشعاش، فهو يذكر أنه قدم له معلومات حول النظام السياسي بالمغرب وخصائصه، كما أمده بمعلومات شخصية حول طريقة وصوله إلى الحكم، حيث تحدث عن بداياته المتواضعة، وقد مكن ذلك بوتوكي من أخذ نظرة عامة عن المخزن ورجال السلطة.

إلى جانب عبد الرحمن أشعاش، تحدث بوتوكي عن محمد البروبي[24] الذي كان يشرف على ديوانة تطوان. اعتبر بوتوكي الرجل منافسا قويا للقائد أشعاش، وقد بنى حكمه على إجراء التفتيش الذي اتخذه في حق بوتوكي رغم كونه ضيفا للقائد أشعاش. ومن الواضح أن هذا الحكم المبدئي الصادر عن بوتوكي في حق البروبي ظل حاجزا بينه وبين الرجل، فعلى الرغم من الدعوة التي وجهها

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

البروبي إلى بوتوكي للنزهة في ضيعته، فقد وصف بوتوكي تلك الدعوة بأنها مملة على عكس سابقاتها. فقد غاب البروبي عن الحفل إلى حين تقديم الطعام، وسخر آل البروبي من بوتوكي، ومن معلوماته الجغرافية، وتعمدوا التكلم بالعربية طوال الوقت، رغم إتقانهم لعدد من اللغات الأجنبية[25].

اشتملت رحلة بوتوكي كذلك على وصف لأحد أعيان تطوان البارزين هو عبد الكريم الراغون الذي نال إعجاب وتقدير الرحالة[26]. يصفه بأنه رجل منفتح ولبق يحسن المعاملة مع الأجانب، على عكس البروبي. وقد برر بوتوكي ذلك بالخبرة الواسعة لعبد الكريم راغون الذي كان سفيرا للسلطان سيدي محمد في عدد من البلدان الإسلامية والأوربية، وخصوصا في الدولة العثمانية[27].

يقدم لنا بوتوكي هذا الرجل من خلال وصف بيته، فهو يذكر أنه لم ير أحسن منه على الإطلاق. كما وصف نزهته مع أصدقائه الذين كانوا يتكلمون باللغتين الإسبانية، والتركية، مما مكنه من تبادل أطراف الحديث مع المدعوين حول مواضيع الساعة، مثل الحرب الروسية العثمانية، والتلقيح، والسياسة الداخلية، ومواضيع اجتماعية كالصيد وركوب الخيل[28].

4.2. ألاركون :

ألف بيدروألاركون كتابا يتضمن مشاهداته، وهو يرافق الجيش الإسباني الذي احتل تطوان في 1860م. وقد رافق بيدرو أنطونيو دي ألاركون الجيش الإسباني المجهز لاحتلال تطوان منذ الاقلاع من مالقة في شهر دجنبر، حتى فشل مفاوضات الصلح الأولى بين مولاي العباس والجنرال أوضونيل.

على غرار بوتوكي، يؤكد ألاركون القواسم المشتركة بين أهل تطوان والأندلس، فهو يذكر عند وصفه منازل تطوان: « منازل تطوان تذكر بمنازل الأندلس تصميمها وترتيبها متشابه تماما. إن وسط المبنى تحت الباحة. ومن هناك تتوالد الغرف. وفي وسط الباحة حنفية تحيط بها أماكن للجلوس، مفصولة أحيانا بستائر لتتحول إلى غرفة للنوم أيام الضيق. وتكمن فخامة بعض الدور في النقش الذي يزين الباب والنوافذ الداخلية والسقف، وذلك بخشب عليه نقوش بألوان متعددة، وكذلك تزين الدور بالزليج الذي يكسو البلاط، والسلم والجدران. كل شيء نابع من الحضارة القديمة التي لم تتغير، فكأن زيارة تطوان، هي زيارة قرطبة في القرن 13م»[29].

انفرد ألاركون بمعلومات قيمة حول أعيان المدينة خلال مرحلة احتلال المدينة. يذكر أن عددا من أعيان المدينة غادروا في اتجاه المدن المغربية والقبائل المجاورة، مثل أعيان عائلة الرزيني التي زار منزلها، يبدو أنه منزل أحمد الرزيني، أشار بأن أفرادها غادروا إلى طنجة، كما قدم وصفا دقيقا لعمارة منزلها ومكونات أثاثه نستخلص منه بعض السمات الاجتماعية المميزة لعائلات الأعيان في تطوان. لم يخف ألاركون انبهاره بجمال وأناقة المنزل الذي يجمع بين الثقافة الأندلسية العربية ومستجدات الحداثة الأوربية[30].

كما أكد ألاركون أن بعض أعيان المدينة قد مكثوا بمدينة تطوان أثناء احتلالها، ومنهم بعض أفراد عائلة الرزيني، وذلك عند حديثه عن السهرة التي

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

قضاها بأحد منازل العائلة رفقة الوفد المغربي، المبعوث من لدن المولى العباس للتفاوض على الصلح مع الجنرال ريوس. يذكر أن صاحب المنزل كان حاضرا، لم يغادر المدينة، وكان من الحاضرين في السهرة.

إلى جانب أعيان عائلة الرزيني، تطرق ألاركون إلى الأعيان الذين تفاوضوا مع الإسبان عند دخولهم للمدينة. وقد تشكلوا من خمسة أشخاص، يذكر ألاركون أن أربعة منهم كانوا راجلين والخامس يسوق بغلة دون أن يركبها. كان يتقدم الراجلين رجل يرتدي حائكا أبيض وخلفه ثلاثة، أشار ألاركون إلى أن أحدهم كان يرتدي لباسا جزائريا. يصف صاحب البغلة بأنه كان يرتدي سروالا واسعا أزرق، وجوارب بيضاء أوربية، وينتعل بلغة صفراء، وله جبة سوداء مطروزة بالحرير، وقفطانا فضفاضا، وذكر أن اسمه "الحاج بن أحمد"، ويصفه بأنه كان قنصلا للنمسا، وهو رجل سافر كثيرا ويتحدث شيئا من الإسبانية[31].

وما يلفت انتباهنا في الأوصاف المقدمة أعلاه، التركيز الكبير للمؤلف على صاحب اللباس الجزائري الذي يذكر أنه كبير في السن، يتحدث الإسبانية بإتقان كبير، واشتبه في أنه أندلسي مرتد عن المسيحية أو يخفي المسيحية. فما هي الخلفيات الكامنة وراء أوصاف ألاركون وتركيزه على العنصر الجزائري؟ فهل يمكن اعتبار ذلك تلميحا لدور هؤلاء الأعيان في تسهيل احتلال تطوان؟

لاشك أن بعض الأعيان الجزائريين بتطوان قد رحبوا بالاحتلال الإسباني، فقد ذكر ألاركون أنه عند زوال (يوم 1860/02/5)، زار معسكر الإسبان أفراد منهم اثنان جزائريان، ولم يكن هؤلاء مكلفين بمهمة، ولكنهم ألحوا في سرعة احتلال الجيش للمدينة التي كانت تسودها حالة مأساوية. ويذكر أن أحد الأربعة إسباني الأصل، أسلم في المغرب حيث أقام عشرين سنة، ويدعى روبليس، وكان ساعاتيا في

قادس. كما تحدث ألاركون عن علاقته الجيدة مع أحد الأعيان الجزائريين الذي قدم له دعوة حضور مأدبة، يصف صاحب الدعوة بأنه شاب في الثالثة والعشرين من عمره يرتدي كل يوم لباسا مختلفا، يتعاطى التجارة ويتحدث الفرنسية والإيطالية[32].

غير أنه لا ينبغي تعميم موقف هؤلاء الأعيان الجزائريين على كافة العناصر الجزائرية، ففي مقابل هؤلاء الأعيان الجزائريين الذين رحبوا بالإسبان، على غرار بعض العائلات التطوانية التي مكثت بالمدينة أثناء احتلالها ورحبت بالإسبان، كان هناك أعيان جزائريون رفضوا الاحتلال الإسباني للمدينة، وغادروا المدينة قبل احتلالها[33].

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

5.2. ستيفان بونزال :

زار المغرب في أواخر القرن التاسع عشر، لخص رحلته في كتاب عنونه ب: "المغرب كما هو"، خصص الفصلان الخامس عشر والسادس عشر من هذا الكتاب للكلام عن وصوله مـن أمريكا إلى طنجة، ثم رحلته إلى تطوان، وإقامته بها مدة غير طويلة[34].

ينطلق بونزال في وصفه لمدينة تطوان من لقائه بقائد تطوان محمد بن أحمد الخضر السلاوي الذي نعته بأوصاف قدحية، تختزل الصورة النمطية التي يحملها الرحالة عن رجال المخزن[35]، كما نفترض أنها تعبر عن خيبة أمله من طريقة استقبال القائد له التي فسرها بالحضور غير المرغوب فيه لمرافقه اليهودي الذي كان يشغل منصب نائب القنصل الأمريكي في مدينة تطوان[36].

والملاحظ أن بونزال يؤكد، باستمرار، عبر صفحات مؤلفه على الصعوبة التي واجهها في لقاء أعيان المدينة، ولا نستبعد أن ذلك يدخل في إطار الترويج لعمله، وتثمين قيمته، خاصة وأنه اندرج ضمن عمل صحفي، الغاية منه إطلاع القارئ الأمريكي على جوانب غريبة في ثقافة الشعوب البعيدة عن القارة الأمريكية[37].

ومن اللقاءات النادرة التي ظفر بها بونزال مع أعيان مدينة تطوان، يذكر استضافة عائلة بريشة له في بيتها، يتحدث عن هذه الاستضافة بقوله: «وأما السيد بريشة فقد رحب بنا ترحيبا حارا، وأكرم ضيافتنا إلى أقصى حد، وهو من أعيان تطوان وأعظم المغاربة الذين قابلتهم في رحلتي حضارة وأوسعهم معرفة، ولذلك لم يفعل كالكاتب الذي أغلق أبوابه في وجهي بسبب الديانة التي يعتنقها نائبنا القنصلي (...) وقد سبق لوالد السلطان الحالي أن أرسل بريشة في سفارات

عديدة إلى الخارج، وانتفع من رحلاته وازداد خبرة بالناس وبالعادات على خلاف غيره من المغاربة الذين قابلتهم ممن سافروا إلى الخارج، فإنهم لم يستفيدوا من رحلاتهم شيئا من ذلك، وربما كان هذا هو سبب عدم رضا القصر السلطاني على بريشة الآن».

سجل بونزال أثناء استضافته في بيت بريشة معطيات دقيقة، شملت الخصائص المعمارية والثقافية لمنزل العائلة الذي يمثل نموذجا لمنازل أعيان مدينة تطوان خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما انفرد بمعطيات حول نساء بريشة، بفضل مرافقته التي تلقت دعوة من حريم بريشة، مكنتها من وصف لباسهم وطريقة جلوسهم وأثاث غرفهم المشتمل على أثاث عربي أندلسي، إضافة إلى الأثاث الأوربي. كما أشارت إلى وجود الإماء داخل المنزل.

تميزت رحلة بونزال كذلك، بتطرقه إلى عادات أعيان تطوان في الاحتفال بأعراسهم، فقد قدم وصفا شاملا لزفاف الكاتب الأول للباشا، ركز في وصفه على دور الإماء في الاحتفال، والمجوهرات واللباس المقدم إلى العروس الذي ينبغي أن يعبر عن مكانة عائلة العريس، ووجاهتها داخل مدينة تطوان[38]. إلى جانب ذلك يذكر بعض التقاليد التي يخضع لها الزواج في مدينة تطوان مثل عدم رؤية العريس لزوجته قبل يوم العرس، وأنه يعتمد في معرفتها وخطبتها على حريم منزله.

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 301-331
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

3. خصائص الأعيان في كتب الرحلة :

1.3. محددات الأعيان :

عملت كتب الرحلة على مقاربة أعيان مدينة تطوان من زوايا مختلفة عن تلك التي ألفناها في الإسطوغرافيا التقليدية. فقد ركز الرحالة على المحددات المادية والثقافية للأعيان. ولاشك أن الاعتماد على المحدد المادي المتمثل في الثروة، يعكس الخلفيات الفكرية للرحالة المنتمين إلى مجتمعات رأسمالية يطبعها التفاوت الطبقي.

وبناء على ذلك فقد تشكل أعيان المدينة من رجال السلطة وكبار التجار المنتمين لأصول أندلسية عريقة، في حين أشارت كتب الرحلة إلى أهل الصلاح والجذب كظاهرة لافتة، دون التعريف برجالها والخصائص المميزة لهم على غرار كتب المناقب والتراجم.

والملاحظ أن الرحالة قدموا الأعيان باعتبارهم فئة منسجمة ذات خصائص اجتماعية متميزة، نختزلها في العناصر التالية :

- على مستوى السكن: وصفت كتب الرحلة منازل أعيان تطوان بشكل دقيق. ولم يخف الرحالة إعجابهم وانبهارهم بالعمارة التطوانية، غير أن هناك ملاحظة تتكرر عند جل الرحالة، وهي التشابه الكبير بين منازل تطوان ومنازل الأندلس. فهل تعكس هذه الملاحظة الصورة النمطية التي حملها الرحالة للمدينة باعتبارها امتدادا للحضارة الأندلسية في الضفة الجنوبية، بحكم تأسيسها من قبل عناصر أندلسية، واستقبالها للعناصر الموريسكية المطرودة من الأندلس خلال القرن 17م؟

من الواضح أن الرحالة ربطوا بشكل كبير بين أعيان المدينة والثقافة الأندلسية. ففي حديثه عن أعيان المدينة يؤكد بوتوكي مسألة الانتماء الأندلسي[39] والتكلم بلغات أجنبية أهمها الإسبانية. كما أكد الرحالة إعجابهم بالعناصر الأندلسية التي تحسن معاملة الأجانب، على عكس العناصر الأخرى المفتقرة إلى اللباقة وحسن معاملة الأجانب.

والملاحظ أن ألاركون بالغ في التأكيد على الروابط الثقافية بين سكان المدينة والأندلس. قد نفسر ذلك بالخلفيات الثقافية المؤطرة لعمله باعتباره ألف في إطار الحملة العسكرية على مدينة تطوان. فلا نستبعد أن غرضه من ذلك كان البحث عن مبررات تاريخية لاحتلال المدينة، وإثارة حماس الرأي العام الإسباني عن طريق استحضار العداء القديم بين الطرفين[40].

كما تشير كتب الرحلة من خلال وصف منازل بعض عائلات الأعيان إلى الغنى والثراء الذي بلغته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بفعل نشاطها التجاري، وعلاقتها الجيدة مع المخزن مثل عائلة بريشة. فقد قدم بونزال وصفا لمنزل العائلة الذي يبرز التأثر الكبير بالهندسة المعمارية الأوربية من خلال تصميمه الذي ضم فناء بدون أعمدة مع وجود عضادات حديدية. كما يظهر الأثاث، بدوره، بصمات الثقافة الأوربية، فقد اشتمل على منسوجات، وساعات، وأدوات أوربية.

- اللباس: أشار الرحالة إلى لباس أهل تطوان، ونلاحظ أن الرحالة قد عملوا على وصف أشكال التمايز بين العناصر الاجتماعية من حيث اللباس، إذ قدموا أوصافا دقيقة للباس الأعيان التطوانيين المختلف بشكل كبير عن لباس العامة. ويعكس ذلك البعد الاثنوغرافي للرحالة، الذين بحثوا عن خصوصية المجتمع التطواني وتراتبيته، التي تتحدد من خلال مجموعة من العناصر من بينها اللباس.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

- الأعراس والاحتفالات: انفرد بونزال بمعطيات فريدة حول بعض عادات أعيان تطوان من خلال الوصف الكثيف الذي قدمه للعرس الذي عاينه رفقة صديقته. واللافت في الوصف الذي قدمه الحضور القوي للعبيد والإماء في الحياة اليومية لعائلات الأعيان في مدينة تطوان[41]. كما يقدم الرحالة الزواج باعتباره ممارسة اجتماعية، سعت من خلاله العائلات الكبرى إلى تعزيز تحالفاتها وتقوية نفوذها لكسب الوجاهة داخل المجتمع التطواني.

- العناية بالبساتين: ركز الرحالة في أوصافهم على أهمية البستان في ثقافة أعيان تطوان. فقد اعتنى أهل تطوان بالبساتين، بل أبدعوا في الاعتناء بها، ونالوا شهرة كبيرة في هذا المجال. تؤكد ذلك مجموعة من الوثائق التاريخية التي تبين تملك أهل تطوان البساتين، وتعاملاتهم فيما يخص شراء وبيع البساتين والفدادين[42]. كما أن هناك بعض المراسلات السلطانية التي تدعو قواد المدينة إلى إرسال خبراء من مدينة تطوان للاعتناء بالبساتين السلطانية، وقد عبرت رسائل أخرى عن إشادة السلطان بأهل تطوان في مجال البستنة وبراعتهم في خدمتها[43].

مجلة الدراسات التاريخية

2.3. حركية بنية الأعيان:

من الواضح أن الرحالة حملوا صورا نمطية لأعيان المدينة طيلة القرنين 18م و19م. قد يدفعنا ذلك إلى إصدار حكم مبدئي يفيد روتينية المقاربة، وقصورها عن تقديم معطيات جديدة حول الأعيان، وحركيتهم الاجتماعية. غير أن القراءة المتمعنة لنصوص كتب الرحلة، ورصد صورها الظاهرة والضمنية، يحفزنا على إعادة النظر في الحكم السابق، إذ نلمس حركية داخل فئة الأعيان، اتخذت أبعادا أفقية وعمودية. يمكن اختزالها في العناصر التالية:

- صور الصراع بين الأعيان :

قدم بوتوكي نموذجا للخلاف والتنافس بيت أعيان المدينة، عندما اضطر إلى الخضوع للتفتيش في الديوانة، على الرغم من توفره على توصية وعلاقته الجيدة بالقائد عبد الرحمن أشعاش. وقد فسر ذلك بالمنافسة بين المشرف على الديوانة محمد البروبي والقائد عبد الرحمن أشعاش التي تختزل - حسب بوتوكي - عداء تقليديا بين خدام المخزن والأعيان المحليين.

كما قدم برايت وايت صورا للصراع بين أعيان مدينة تطوان، عندما نقل صور معركة "عيطة السبت" التي شهدت تنافسا شرسا بين أعيان تطوان والباشا أحمد بن علي الريفي. ويلاحظ من خلال هذه الصور تركيزه على الجانب النفسي، إذ اعتبر أن الصراع هو نتيجة الحقد المتراكم لحقب عديدة بين الأعيان المحليين

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

- أشكال الارتقاء الاجتماعي داخل مدينة تطوان:

استطاعت كتب الرحلة بفضل دوافعها الاستكشافية تقديم بيوغرافيات متميزة للأعيان عكست أشكال الارتقاء الاجتماعي داخل المدينة الذي تميز حسب منظورها بالمرونة، إذ ترتبط بالمؤهلات الفردية. يذكر بوتوكي كيفية انتقال أشعاش من سائس إلى قائد للمدينة بفضل تفانيه ومؤهلاته التي أكسبته ثقة المخزن، إذ تم تعيينه قائدا لمدينة تطوان، وقد شكل بذلك معلما رئيسا لعائلته حيث تعاقب أفرادها على مناصب مخزنية مهمة داخل وخارج المدينة.

كما نلاحظ من خلال كتب الرحلة الدور الكبير الذي لعبه التجار الكبار خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر، بفضل علاقاتهم التجارية الكثيفة مع أوربا مثل عائلة بريشة والرزيني. وقد دفع ذلك المخزن إلى استقطاب هؤلاء الأعيان قصد الاستفادة من خبرتهم، إذ كلفوا في مناصب مخزنية مهمة مثل قنصل المغرب بجبل طارق بهدف قضاء مصالح المخزن التجارية والسياسية.

وإلى جانب هؤلاء الأعيان ركزت كتب الرحلة على الأعيان الجزائريين بتطوان خلال النصف الثاني من القرن التاسع. فقد أشار رحالة القرن التاسع عشر إلى المكانة الاجتماعية التي حظي بها هؤلاء الأعيان، ومظاهر تأثيرهم في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمدينة.

خلاصة:

تميزت كتب الرحلة باعتمادها على المحددات المادية في تقديم أعيان المدينة، إذ ركزت على وصف نمط حياة الأعيان من خلال السكن واللباس والأعراس. في حين أنها أهملت المحددات الرمزية داخل المجتمع التطواني، التي امتلكتها بعض الفئات مثل الشرفاء وأهل الصلاح والمتصوفة، على الرغم من الإشارات العابرة لمكانة الصلحاء في بعض كتب الرحلة. ومن الواضح أن اعتماد المحدد المادي يعكس المنطلقات الثقافية التي خضع لها الرحالة بحكم انتمائهم لمجتمعات رأسمالية تستند في تراتبيتها إلى الثروة المادية.

مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 21 العدد 01 السنة 2020 ص ص 301-331
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الهوامش:

[1] يمكن اعتماد كتاب «**بين الزطاطة وقاطع الطريق**» لعبد الأحد السبتي نموذجا لكيفية توظيف إسطوغرافيا الرحلة واستثمارها بالشكل الجيد، دون الخضوع للاعتبارات المنهجية الصارمة، التي كانت تقيد الباحث المغربي، وتحد من استثماره لمتن الرحلة ضمن البحث التاريخي في الجامعات المغربية. انظر:

عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق**، دار توبقال للنشر، الرباط، 2009، ص. 35 - 88.

عبد القادر بوراس، «منهجية جديدة في استثمار المصادر ومحاورة القراء»، ضمن **كراسة رهانات التاريخ الاجتماعي: قراءات في كتاب بين الزطاط وقاطع الطريق لعبد الأحد السبتي**، إعداد أحمد بوحسن، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011، ص. 87 – 99.

[2] BoussifOuasti, « La reconstitution de l'histoire de Tétouan à partir des récits de voyage traités en tant qu'archive », **Actes du Colloque : Tétouan et documentation du 16ème siècle au 20ème siècle**, Tétouan, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 2007,pp.215-221.

[3] عبد الحي بنيس، «تطوان محطة عبور البعثات الأجنبية إلى مكناس في بداية القرن 18»، **ندوة تطوان في القرن الثامن عشر**، تطوان، 1994، ص .59- 73.

[4] BoussifOuasti, « Tétouan devant la conscience des rédempteurs des captifs et des voyageurs européens au XVIIIème siècle », **Actes du colloque: Tétouan au XVIII ème siècle, Tétouan/Tanger**, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines et Ecole Supérieure Roi Fahd de traduction,1994, pp.146-160.

[5] John Windus, ***A journey to Mequinez*** ,London, J.Tonson ,1725.

[6] John Braitwaite ,**The History of the Revolutions in the Empire of Morocco upon the Death of the Late Emperor Mulay Ismael**, London, 1729.

[7] Jean Potocki,**Voyage dans l'empire du Maroc fait en l'année 1791**, Paris, Maisonneuve et Larose, 1997.

[8] Pedro Antonio de Alarcon, **Diario de un testigode la guerra de Africa**, Madrid, Edicion del Centro, 1974.

[9] اعتمدنا على الترجمة التي قدمها محمد داود في كتاب **تاريخ تطوان**، ج.10، ص.42 - 59.

[10] عرف المغرب قبل القرن 18م مجموعة من الكتابات التي قدمت معطيات لا بأس بها عن المغرب منها نذكر :

Mouette (G), ***Relation de la captivité du sieur, Mouette dans les Royaumes des Fès et de Maroc,*** **Paris**, Jean Cochart, 1683.

[11] BoussifOuasti, La reconstitution de l'histoire de Tétouan,op,cit. pp.215-221.

[12] كانت تطوان تخصص استقبالا رسميا للبعثات الديبلوماسية الأجنبية الرسمية يرأسه في غالب الأحيان باشاوات المدينة . كان هؤلاء الباشاوات يسهرون على راحة الوفود الأجنبية طيلة مقامها بتطوان، كما كانوا يضعون لها برامج خاصة لزيارة معالم المدينة وضواحيها.

انظر:

عبد الحي بنيس،« تطوان محطة عبور البعثات الأجنبية إلى مكناس قي بداية القرن 18 » ، ضمنأعمال **ندوة تطوان خلال القرن الثامنعشر** المنعقدة أيام 21 و22 و23 أكتوبر1993، تطوان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، 1994، ص. 59- 72.

[13] John Windus,op.cit,pp.22-23.

انظر كذلك :

محمد داود،**تاريخ تطوان**، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1959، ج.2، ص. 63 -64.

[14] John Windus,op.cit,p.24.

[15] يذكر وندوس في وصفه للباس أهل تطوان:

« أما الفقراء منهم فكلهم يلبسون ثيابا تسمى جلابية مصنوعة من صوف خشنة بدون أكمام وإنما فيها ثقب منها يخرجون أيديهم، وتصل تلك الثياب إلى ركبتهم فتكون حول الجسم كخنشة والقواد يضعون حول وسطهم حزاما من جلد مطروز بالذهب يربطون بهم سيوفهم المعلقة بالحمائل ».

للمزيد حول أوصاف وندوس الخاصة بتطوان، انظر :

John Windus,op.cit,p.29.

[16] يذكر محمد داود في إحالة له في صفحة 57 من الجزء الثاني أن العائلة أندلسية كانت معروفة في مدينة تطوان، وقد تولى أحد رجالها منصب قائد تطوان.

هناك ذكر لأحد أفراد العائلة، وهو أحمد بن محمد قردناش الذي بعثه مولاي إسماعيل سنة 1706م إلى الملكة "آن" ، وكان من المهام التي كلف بها مطالبة الملكة المذكورة بتقديم المساعدة للمغرب لاسترجاع مدينة سبتة.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

للمزيد انظر:

- روجرز، **تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام 1900**، ترجمة ودراسة يونان لبيب رزق، الدار البيضاء، دار الثقافة، 2000، ص. 108.
- عبد العزيز السعود، **تطوان في القرن الثامن عشر**، م.س، ص. 146.

انظر كذلك: محمد ابن عزوزالحكيم، **مرجع سابق**، ص.125.

[17] ركزت كتب الرحالة بشكل كبير على المجاذيب والأولياء الصالحين بالمدن المغربية،ولعل ذلك يفسره البعد الأنثروبولوجي للرحالة الذين عملوا على فهم تصورات المجتمع وممارساته الثقافية.

اهتمت كتب الرحلة كذلك بتمثلات المغاربة في المجال الصحي مثل رحلةJohn Buffa الذي كان طبيبا. انظر:

John Buffa,**Travels Through the Empire of Morocco**, London, General Books,2010.

راجع كذلك :

عبد الحفيظ حمان، الجانب الانتروبولوجي في رحلات دومينيجو باديا (علي باي العباسي)، **ضمن ندوة الرحلة والغيرية**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،2008،ص. 93 - 112.

[18] JohnBraitwaite ,op.cit, p.66.

انظر كذلك : محمد داود، **تاريخ تطوان، مرجع سابق**، ج.2، ص. 118.

[19] JohnBraitwaite ,op.cit, p.83.

[20] Ibid , p.127.

[21] فاطمة الحراق، «تطوان في نهاية القرن 18م قراءة في رحلة بوتوكي »، **ندوة تطوان في القرن الثامن عشر**، مرجع سابق، ص. 24.

[22] **نفسه**، ص.24.

[23] قام عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري برحلة عام 1156هـ، كان الهدف من زيارته إلى مدينة تطوان علميا، وهو الإقبال على الدروس، وأخذ الإجازات من العلماء الذين يدرسون في جوامعها. ذكر في كتابه أنه اجتمع بالشيخ أحمد الورزازي في جامع لوقاش، وسمع منه أوائل صحيحي البخاري ومسلم وموطأ ومالك مع أسانيد في الكتب المذكورة، كما درس علم التفسير والأصول ومختصر الشيخ

خليل، كما ذكر أن الشيخ أحمد السرايري أجازه بعد أن درس عليه ألفية العراقي في السيرة النبوية. غير أنه أشار أنه سأل عن بعض العلوم العقلية مثل الفلك، فلم يجد شيخا يدرسها في تطوان.

للمزيد من التفاصيل انظر:

عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري،**لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**،تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.

[24] ينتمي إلى عائلة البروبي الأندلسية . للمزيد حول هذه العائلة أنظر:

محمد بن عزوز الحكيم،**كشاف**، رقم 456، مطابع الشويخ، 1999، ص. 54.

[25] Jean Potocki, **Voyage dans l'empire du Maroc , fait en l année 1791**, Paris, Maisonneuve et Larose, p.29.

[26] يذكر الرهوني أنها عائلة قديمة بتطوان،كان منها عدد من الأعلام المشهورين الذين اشتهروا بممارسة التجارة بالمشرق والمغرب.

للمزيد حول هذه العائلة انظر:

أحمد الرهوني، تطوان، منشورات تطاون أسمير، 1998- 2012، الجزء الثالث، ص. 172 - 173.

محمد بن عزوز،**مرجع سابق**، ص .73.

[27] ذكر محمد داود في **تاريخ تطوان**، المجلد الثاني، صفحة 267، أن تاريخ إرسال عبد الكريم راغون إلى تركيا هو عام 1180. كما أورد رسالة توصية تهم السفير بعثها السلطان محمد بن عبد الله إلى الدولة العثمانية.

[28]فاطمة الحراق،**مرجع سابق**، ص.27-28.

[29]محمد العربي المساري، «تطوان،كما وجدها ألاركون: بيضاء، بيضاء »، **مجلة تطوان**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 05، تطوان، 1991، ص. 49.

[30] Pedro Antonio de Alarcon,op,cit, pp.223-224.

[31] يقصد ألاركونهنا أحمد بن علي أبعير الذي كان سابقا ملحقا بالقنصلية النمساوية والقنصلية الدينماركية، وهو الشخص الذي التف حوله بعض الأشخاص من الذين عجزوا عن الهجرة، وطلبوا منه التوسط لدى الإسبان .

للمزيد انظر:

محمد داود، **تاريخ تطوان، مرجع سابق**، ج.5، ص.232- 233.

انظر لوحة لهذا الوفد :

نفسه، ج.4 ، ص. 247.

[32]Pedro Antonio de Alarcon, op,cit, pp.242-243.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

[33] أورد محمد داود حكاية جزائري يدعى محمد بن عبد اللطيف، وصفه بأنه من كبار أهل الجزائر الذين هاجروا من الجزائر إلى تطوان بعد احتلاله، كان قد أبدى تخوفه من نتيجة الحرب، فقال له بعض أهل تطوان: لا تخف فإن لدينا المعلم التشولو وهو طبجي فريد في عمله، فقال لهم: وكم عندكم منه، فقالوا: هو فريد لا ثاني له، فقال لهم: البلاد التي ليس فيها إلا تشولو واحد لا تسكن، وهي مأخوذة، ثم حمل أهله وانتقل إلى جبل طارق، واستمر بها إلى أن انتهت الحرب وعاد الناس إلى ديارهم، فعاد هو أيضا إلى تطوان.

محمد داود، **تاريخ تطوان، مرجع سابق**، المجلد الخامس، ص. 217.

[34] انظر ترجمة الفصلين :

محمد داود، **تاريخ تطوان، مرجع سابق**، المجلد العاشر، ص.42 - 59.

[35] يذكر بونزال: "وفي صباح اليوم التالي قابلنا الباشا وهو أصدق مثل شاهدته في حياتي للص، كانت سحنته كالصقر، وعيونه ضيقة، ونظراته باردة، وأصابعه قوية ومدببة كمخالب النسر".

انظر: محمد داود، **تاريخ تطوان،مرجع سابق**، المجلد العاشر، ص. 45.

[36] مارس يهود تطوان النشاط التجاري، وارتبطوا بالتجار الأوربيين والقناصل الذين اعتمدوا عليهم لقضاء مصالحهم التجارية في مدينة تطوان.

حول يهود تطوان، انظر :

عبد العزيز شهبر، **دراسات حول يهود تطاوين**، تطوان، منشورات جمعية تطاوين أسمير،2002، ص. 22.

HaïmZafrani,**Les juifs du Maroc, Vie sociale, économique et religieuse**, Paris,1972.

SaraLeibovici,**Chroniquedes juifs de Tétouan(1860 -1896)**, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984.

Mohamed kenbib, « Les juifs de Tétouan entre la chronique et l'histoire », **HespérisTamuda**, Vol.XXIV, 1989.

[37] علق محمد داود في هامش له عن سبب رفض أعيان تطوان استضافته أن ذلك قد يرجع إلى شعورهم بأن العلاقة بين بونزال ورفيقته غير شرعية. ونحن نتساءل حول الأسباب التي جعلت بونزال يهمل الخصوصيات الثقافية للمجتمع التطواني، على غرار الرحلات الأوربية السابقة، فمثلا شارل دو

فوكو قبل رحلته تعلم العربية والعبرية وعلم الخرائط والجغرافية، واطلع على الكتب التي تضم معلومات عن تقاليد وشعوب إفريقيا، كما عمل على إخفاء هويته بالتنكر في شخصية يهودي.
انظر:

Charles de Focauld, **Reconnaissance au Maroc**,**1833-1884**,Paris,Challamel,1988,2vols.

أحمد الأزمي، «رحلة دو فوكو إلى المغرب (1883-1884)» ، **ندوةالرحلة والغيرية، مرجع سابق**، ص.69 - 91.

[38]تؤكد الوثائق العدلية التي تخص مهور عائلات الأعيان، ما ذكره بونزال فيما يتعلق بأهمية المجوهرات واللباس المقدم الذي كان يعكس قيمة ومكانة العائلة داخل تطوان.
انظر:

- صداق الحاج محمد راغون لأم كلثوم بنت عبد القادر هلال ضمن **تاريخ تطوان**، المجلد السابع، ص.269، الوثيقة المؤرخة ب 1215 هـ .
- صداق علي الباهي لفطومة ابنة عبد الكريم بنونة، ضمن **نفس المرجع**، ص.265، المؤرخ ب 1210 هـ
- صداق محمد داود لابنة السيد عبد الله الدليرو، مؤرخة في 1264 هـ ، ضمن **نفس المرجع**، ص. 295.

[39] ركزت الكتابات الاستشراقية خاصة الإسبانية على البعد الأندلسي داخل مدينة تطوان. ومن أبرز المؤلفات الإسبانية كتاب غييرموغوتالبيسبوستو "الموريسكيون في المغرب" الذي اعتبر أن تاريخ تطوان هو امتداد للتاريخ الأندلسي. للمزيد من التفاصيل انظر:
غييرموغوتالبيسبوستو، **الموريسكيون في المغرب**، ترجمة مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005.
- Ciudad de Tetuan y Junta de Andalucia, **La medina de Tétuan :Guia de Arquitectura**, Tetuan - Sevilla, 2001.

[40] حول الوضع السياسي الداخلي بإسبانيا قبل حرب تطوان انظر:
يوسف أكمير، « المسكوت عنه في تاريخ حرب افريقيا: قراءة مسارات التيارات السياسية والاجتماعية الإسبانية 1848-1860»، **ندوة حرب تطوان (1859-1860)**، المنظمة بتطوان يومي 14 و15 ماي 2009، الرباط، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2010، ص. 185 - 201.

[41] هناك مجموعة من الوثائق التي تتطرق إلى العبيد في مدينة تطوان. انظر كأمثلة على ذلك:
- الوثيقة العدلية المؤرخة ب 1202 هـ، وهي تخص عتق الفقيه الحاج أحمد بركة مملوكه مبارك، **تاريخ تطوان**، ج.7، ص. 257.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

- الوثيقة العدلية المؤرخة بعام 1210، وهي صداق علي الباهي لفطومة ابنة عبد الكريم بنونة الذي يتضمن الإماء، **تاريخ تطوان**، ج.7، ص .225.
- الوثيقة المؤرخة ب 1271، رقم 688 ضمن **وثائق الخزانة الداودية بتطوان.**
- **وثائق عائلة الطريس بتطوان**، التي تتضمن إشارات إلى وجود العبيد داخل المجتمع التطواني.

للمزيد من التفاصيل حول العبيد داخل المجتمع التطواني:

- ابن الحاج السلمي، العبيد والثقافة الزنجية في تطوان في القرن 14 هـ، ضمن أعمال **ندوة تطوان تاريخ وعمران** المنعقدة أيام 9 و10 دجنبر2005، وأيام14و15و16 دجنبر2006، منشورات كلية الآداب تطوان، 2009.

[42] من نماذج الوثائق التي تهم هذا الباب انظر:

- الوثيقة العدلية المؤرخة ب 998 هـ حول شراء فدان بمدينة تطوان، أوردها محمد داود في **تاريخ تطوان**، ج.3، ص. 373.
- وثيقة تثبت شهادة ملكية بستان بسانية الرمل، محمد داود، **المرجع نفسه**، المجلد السابع، ص. 303.

[43] انظر الرسالة التي أوردها محمد داود، **المرجع نفسه**، الجزء الثامن التي تظهر أن شخصين من تطوان كانا يخدمان لدى السلطان في بعض بساتينه.

انظر كذلك إلى الرسالة المؤرخة ب 1245 هـ، ضمن الجزء الثامن، **المرجع نفسه**، ص. 187 التي تبرز طلب السلطان فلاحين من تطوان من أجل خدمة بساتينه بمراكش.

هناك رسالة أخرى مؤرخة ب 1245هـ ضمن المجلد الثامن، **المرجع نفسه**، تظهر ثناء السلطان على الرباعة ومكافأته لأهلهم في تطوان، ص. 193.

مجلة الدراسات التاريخية